

موقف ابن بسّام الشنتريني  
في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة  
من قضية القديم والجديد

Ibn Bassam al-Shantarini's opinion of the old and the new in his book "  
Al-dhakhira fi mahasin ahl al-jazira "

أ. سعيداني محمد†

تاريخ الاستلام: 2019-10-09 تاريخ القبول: 2019-12-25

**ملخص:** يُعد كتاب ابن بسّام (ت542هـ) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" واحدا من بين المصنفات العديدة التي تناولت قضية القديم والجديد، وخاضت فيها خوضا مسهبا على مدار الأقسام الأربعة التي عمل صاحبها فيها على المفاضلة بين أشعار القدماء والمحدثين من خلال عرض رؤيته لعمود الشعر الذي يعد من أبرز قضايا الصراع بين القديم والجديد، حيث كان يُنظر إلى الشاعر بقدر التزامه بهذا العمود أو الخروج عنه. وقد استفاد ابن بسّام استفادة كبيرة من الجهد التقعيدي والعمل التنظيري للمشاركة بحكم السبق الزمني لعصره، فلم يخرج، في العموم، عما قرره النقاد السابقون عليه، لذلك نجد أن تميزه قد انصب في معظمه على الجانب الإجرائي الذي أبدع فيه؛ فجاء الكتاب حافلا بالتطبيقات والموازنات التي يرى محقق المدونة إحسان عباس، أنها لو جمعت لشكلت مجلدا ضخما. ومأمول هذه الدراسة أن تتعرف على رأي ابن بسّام ومنهجه في معالجة قضية القديم والجديد، مع الإلمام بهذه القضية في النقد القديم بصفة عامة، حتى يتمكن من تحديد موقع ابن بسّام بين النقاد، وتتعرف إلى ما تميز به عنهم.

**الكلمات المفتاحية:** القديم؛ الجديد؛ بناء القصيدة؛ عمود الشعر.

**Abstract:** Ibn Bassam al-Shantarini's book " Al-dhakhira fi mahasin ahl al-jazira " is one of the many works that dealt with the issue of the old and the new, and deepened it's study over the four sections in which its owner worked on the comparison between the poems of the ancients and the modernists by displaying his vision of the poetry column, which is one of the The most prominent issues of the conflict between the old and the new, where he looked at the poet as much as his commitment to this column or to get out of it, and Ibn Bassam benefited greatly from the complex effort and the theoretical work of the part of the time-advance of his era, did not generally depart from what the previous critics decided about it, therefore we find that it's distinction was mostly focused on the conducting side who master it, then the book came full of implementations and counterbalance, which Ihsan Abbas sees that if it is collected it would configures a large volume, the study aim is to

†جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، البريد الإلكتروني: [saidanimohammed86@gmail.com](mailto:saidanimohammed86@gmail.com) (المؤلف المرسل)

recognize ibn Bassam's opinion and his method in dealing with the old and the new issue with studying this case in the old criticisms generally, until we can determine Ibn bassam's position among the critics, besides knowing what distinct him from them.

**المقدّمة:** تُعدّ قضية الصراع بين القديم والحديث، من قضايا النقد الكبرى، التي أولاها النقاد العرب القدامى كثيرا من عنايتهم، وخصّوها بمزيد من اهتمامهم. وقد اشتدّ الجدل حولها حين تمسك بعض العلماء والنقاد بالشعر القديم وفضلوه على الشعر المحدث؛ حيث رأوا أنه لم يبلغ جودة الشعر القديم فانبرى الشعراء المحدثون يقارعون أولئك النقاد بالحجة. ولعل خروج المحدثين عن عمود الشعر القديم وعدم التزامهم بالنهج الذي رسمه الأقدمون للقصيدة العربية هما السبب الذي أدى إلى تحامل الرواة واللغويين على الشعراء المحدثين، وهو ما يؤكدّه مصطفى هذارة بقوله: "... المحافظون على القديم يتمسكون بالمعنى تمسكهم بعمود الشعر ومنهج القصيدة، والمحدثون يقرّون بتناولهم لمعاني الأقدمين، ولكنهم يأخذون في تحويلها بالصياغة الجديدة وبما يلتصقون من ألوان البديع ."

وقد مثل الاتجاه الأول لغويون يُشهد لهم بالفضل في حفظ اللسان العربي، مثل الأصمعي الذي روى عنه أبو الفرج الأصفهاني عن ميمون بن طائع، قال: سمعت الأصمعي يقول: "حضرنا مأدبة ومعنا أبو محرز خلف الأحمر وحضرها ابن منذر فقال لخلف الأحمر: يا أبا محرز، إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير، قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة: فقس شعري إلى شعرهم، وأحكم فيها بالحق، فغضب خلف ثم أخذ صفحة مملوءة مرقًا فرمى بها عليه"، أمّا ابن الأعرابي فمن النصوص المشهورة التي رويت عنه قوله: "إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يُشم يوما ويذوي، ثم يُرمى به وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر، كلما حركته ازداد طيبا"، وأمّا أبو عمرو بن العلاء فإنّه لا يعدّ الشعر إلا للشعراء الجاهليين. وقد مثل الاتجاه الثاني أدباء لا تتكر مساهمتهم في تطوير الذوق العربي ومواكبته لعصره، مثل عبد الله بن المعتز، الذي بيّن صراحة أنّه يميل إلى الشعراء المحدثين، قال: "ولكننا لا نخرج من شرط الكتاب، لئلا يملّ القارئ إذا طال عليه الفن الواحد، وليحفظ هذه النكت والنوادر والملح، ليستريح من أخبار المتقدمين وأشعارهم فإنّ هذا شيء قد كثرت رواية الناس له فملوه، وقد قيل: لكل جديد لذة، والذي يستعمل في زماننا إنّما هو أشعار المحدثين وأخبارهم، فمن هاهنا أخذنا من كل خبر عينه ومن كل قلادة حبّتها". وإذا ما انتقلنا إلى آراء الصولي فإننا نجد أنّه قد وازن بين القدماء والمحدثين من خلال بعض السمات الفنية التي يتميز بها شعر كل من الفريقين، قال: "اعلم - أعزّك الله - أن ألفاظ المحدثين مذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معان أبدع، وألفاظ أقرب وكلام أرق، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء؛ وأنّه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا"، مع ملاحظة أنّ كل هذه المواقف تتسم لدى بعضهم بالغموض أحيانا وبالتعصب أحيانا أخرى، لذلك ظهر اتجاه ثالث

معتدل مثله ابن قتيبة والجرجاني وابن رشيق وآخرون، ساروا في نقدهم على نهج الجاحظ، فلم يتعصبوا للقديم لقدمه، أو يجنوا على المحدثين لتأخرهم، بل كان الذوق هو مقياسهم وحكمهم، وفنية الأدب هي ملجؤهم ومطلبهم.

ومن هنا نستطيع القول: "إن أحكام المتعصبين، إنما هي أحكام لا تتسم بالعلمية، لأن التشيع للقديم أو الجديد، صرفهم عن الحاسة الفنية، التي تطرب للجيد من الشعر، وتجري وراء الحس الجمالي، فتحكم الذوق الأدبي السليم، الذي لا يهمله إلا قدرة الشاعر الأدبية وإجادته الفنية، ولا يهمله عصر الشاعر ومن يكون وما مكانته الاجتماعية."

وليس تقصّي آراء النقاد العرب القدامى ومواقفهم من قضية المفاضلة بين القديم والحديث من غايتنا هاهنا، ولكن عرضنا، لبعض تلك المواقف والآراء بالقدر الذي يفيدنا في توضيح آراء ومواقف ابن بسام من هذه القضية، وهو ما سنحاول تبينه في الصفحات الآتية:

### 1.1- ابن بسام وموقفه من القديم والجديد:

لابن بسام رأي في مسألة القديم والجديد، كما يتجلى ذلك من النصوص الواردة في (ذخيرته) والصادرة عنه، والواضح أنه يميل إلى الجديد، بل هو ممن يدافع عنه، ويتبناه في تقويم الأدب، منشوره ومنظومه فيقول: "وقد مجّت الأسماع: (يا دار مية بالعلياء فالسند)، وملّت الطّباع: (لخولة أطلال ببرقة ثمهد) ومحت: (قفا نبك) في يد المتعلمين ورجعت على ابن حُجر بلائمة المتكلفين، فأما (أمن أم أوفى) فعلى آثار من ذهب العفا، أما أن أن يصمّ صداها، ويُسام مداها؟"، فهو يتناول أشهر شعراء العربية من أصحاب المعلقة الجاهلية بالسخرية والتجريح، وهذا ما ذهب إليه أحد الدارسين بقوله: "إنها جرأة عظيمة أن يتناول ابن بسام ما يشبه المقدسات في التراث العربي بهذا الشكل، بل إنها ثورة عميقة الأغوار."

وليس صنيع ابن بسام في كل هذا لتفضيل عصر على عصر، تقدّم أو تأخّر فالإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر تقدم به الزمان أو تأخر، ولحي الله قولهم: الفضل للمتقدم، فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير."

واتفق الكلاعي مع ابن بسام في أنّ الصراع مع المشاركة هو صراع زمني حين يقول: "التأليف -أعزك الله- غير موقوف على الزمان والتصنيف ليس بمقصور على أوان دون أوان وربما زعم بعضهم، وربما زعم بعضهم أنّ تلك الطريق لا تسلك في كل زمان."

والحق أنّ صنيع الانتصار للحديث، وإنصاف المعاصرين، تكرر في غير مرة، فمن أشهر من ناضل عن مثل هذه المبادئ الناقد المشرقي ابن قتيبة صاحب كتاب (الشعر والشعراء) الذي قال في مقدمته: "ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلا منهما حظه، ووفرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله.. ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده، إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شريف خارجيا في أوله". ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ ابن قتيبة كان منصفا في تقويمه للشعر والشعراء، لأنّه نظر إلى الشعر من حيث هو أثر فني، وتجاهل مذهب من قالوا بتفضيل القديم لقدمه، ورفض الحديث لحداثته، وبذلك يكون قد خرج من دائرة التعصب، الذي لا يقوم على أساس من العدل والإنصاف.

والمطلع على كتاب (الذخيرة) لن يتكبد جهدا كبيرا ليضع يده على الطريقة التي اعتمدها ابن بسام في ترتيب تراجمه حيث يقول: "وقد أذكر الرجل لنباهة ذكره، لا لجودة شعره، وأقدم الآخر لاشتهار إحسانه مع تأخر زمانه". ويكرر مثل هذا القول في غير موضع من كتابه فيقول: "وقد أبدأ بذكر الرجل لمكانه من الإحسان، لا لتقدمه من الزمان".

وهذه الأقوال وأمثالها تمثل الجانب النظري لابن بسام من قضية القدماء والمحدثين، أما الجانب التطبيقي فيتجلى في أن كتاب (الذخيرة) كلّهُ للمحدثين، ولا يأتي فيه ذكر القدماء إلا عرضا أو طلبا لحجة أو استدلال. والأمثلة على موقفه التطبيقي من هذه القضية كثيرة متناثرة في (ذخيرته) منها: أنه يورد أبياتا لابن رشيق في تفضيل السواد على البياض:

دَعَا بِكَ الْحُسْنُ فَاسْتَجِيبِي يَا مِسْكُ مِنْ صِبْغَةٍ وَطِيبِ

تِيهِي عَلَى الْبَيْضِ وَاسْتَطِيلِي تِيَةَ شَبَابٍ عَلَى مَشِيبِ

وَلَا يَرُوعُكَ اسْوَدَادُ لَوْنٍ كَمُقَلَّةِ الشَّادِنِ الرَّبِيبِ

فَإِنَّمَا النُّورُ عَنْ سَوَادٍ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَالْقُلُوبِ

وعقّب ابن بسام على هذه الأبيات، فقال: "وهذا من الكلام الرائق، المتأخر السابق". فأبيات ابن رشيق رائقة، فهي وإن كانت لشاعر محدث متأخر، إلا أنها متفوّقة سابقة.

وأما قصيدة أبي محمد ابن عبدون في مدح المعتمد بن عباد، والتي أولها:

سَارُوا وَمِسْكُ الدِّيَاجِي غَيْرُ مَنُوبٍ وَطُرَّةُ الشَّرْقِ غُفْلٌ دُونَ تَهْذِيبٍ

"فهى قصيدة فريدة، فضح بها الأوائل، وصرّح فيها عن كلّ طائل، والمرء مخبوء تحت لسانه، وشرفه بنفسه لا بزمانه." "

كما أورد ابن بسام بيتا للمتنبي تطرّف في قوله:

يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ

قول طرفة:

بِكَتَائِبٍ تَرْدِي كَمَا تَرْدَى إِلَى الْجَنَيفِ النُّسُورُ

الذي يُعلق عليه بقوله: "ولكن المتنبي طار في السماء مع العقاب، وترك طرفة في الأرض على التراب".

نلاحظ من خلال هذا النموذج أنّ ابن بسام انطلق من آلية التشبيه للحكم على الشاعر بالسبق والتفوق، ولأنّه يكرس النظرة السائدة في عصره فقد حكم لصالح المتنبي على حساب طرفة.

ويؤكد ابن بسام أنّ القدماء وقعت لهم أشعار ركيكة، ومع هذا فقد تناقلها الناس لمكانة ناظمها فيقول: "قد رويت أشعار أولي النباهة والأعيان على قديم الزمان، بشرف قائلها، مع قلة طائلها، وقد رأيت أبا بكر الصولي أثبت لملوك بني أمية، وخلفاء بني العباس ماذا لو صدر مثله أصغار الناس لاستهجن أو طرأ لضعاف السوق لاستصغر." "

ويلتقي هذا الاتجاه التطبيقي في معاني المحدثين مع الاتجاه النظري الذي جهر به بعض النقاد. فابن شرف يدعو إلى التزام الحيدة، ومجانبة العصبية والهوى في الفصل بين القديم والحديث فيقول: "وتحفظ من شيئين أحدهما أن يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له، والثاني أن يحملك إصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له، فإنّ ذلك جور في الأحكام، وظلم من الحكام حتى تمحص قوليهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما، فلا يرعك أن تجري على منهاج الحق في جميع الخلق." "

والحق أنّ ابن بسام قد خرج غير مرّة عن منهجه في الدفاع عن المحدثين، وإظهار محاسن نثرهم وأشعارهم، فقد تراجع عن رأيه المؤيد للجديد في موقفين هما: الأول في ترجمته لأبي إسحاق الحصري صاحب كتاب (زهر الآداب)، فقد تحدث عن كتابه هذا قائلاً: "عارض أبا بكر الحافظ بكتابه (زهر الآداب) فلمعري ما قصر مداه، ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه، ومزج حمى أرضه

وسمائه، بكلام أهل العصر دون كلام العرب لكان كتاب الأدب لا ينازعه في ذلك إلا من ذاق الأمد وأعمى بصيرته الحسد . "

فهو يمتدح كتاب (زهر الآداب) ولكنه يأخذ على مؤلفه عدم اعتناؤه بكلام العرب الأقدمين واقتصاره في كلامه على كلام المعاصرين، مع العلم بأن "الخصري لم يكن يستطيع أن يبدي بالقدامى عناية أكبر من التي تجلت في كتابه، لأنه كتاب بلاغة وبديع بالدرجة الأولى وهو لذلك مضطر بحكم هذه الموضوعات إلى الإكثار من الاستشهاد بأشعار العباسيين من أمثال ابن المعتز، ومسلم بن الوليد، بشار، وأبي نواس وغيرهم ممن تكثر الأشعار البديعية في شعرهم. "

أما الموقف الثاني فيتمثل في رأيه حول الموشحات، التي أخلى منها (ذخيرته) وابن بسام يدعو صراحة إلى الوقوف على مذاهب العرب، واقتفاء طريقة فحول الشعراء، وذلك في حديثه عن فن الرثاء، وكأنه يحاول أن يضع بين أيدي الشعراء منهجا جاهزا في الرثاء، استنبطه من المراثي التي نظمها قدماء الشعراء. ففي الفصل الذي ترجم فيه للوزير أبي مروان ابن سراج، جمع قسطا وافرا من القصائد، التي قيلت في رثائه، وأورد في تلك المراثي قصيدة ابن عبدون التي مطلعها :

مَا مِنْكَ يَا مَوْتُ لَا وَاقٍ وَلَا فَادِي حُكْمُ حُكْمِكَ فِي الْقَارِي وَفِي الْبَادِي

وعلق على تلك القصيدة قائلا: "وهذه القصيدة طويلة سلك فيها أبو محمد طريقته في الرثاء، إلى الإشارة والإيماء، بمن أباداه الحدثان من ملوك الزمان.. واقتفى أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأيين والرثاء". كما تحدث عن طرائق المحدثين في تناول معاني القدماء، ونص على تجويدهم فيما يتناولونه من معان قديمة، كعزوفهم عن ضرب الأمثال في التأيين بقوله: "أما المحدثون فهم إلى غير ذلك أميل". وابن بسام باعتباره ممثلا للمدرسة القديمة فقد كرس نظرتها في آرائه النقدية، من ذلك مثلا حمله على الشاعر الذي يجمع في التعزية بين التأيين والإكثار من مدح المعزى لا لشيء إلا لأنه لم يصدر عن واضعي النماذج حيث يقول: "وأكثر من أبته أطل في مدح ابنه، وليس من عادة الشعراء المقتدى بهم الإكثار من مدح المعزى في تأييين حميمه المتوفى، وإنما يلّمون به إماما بعد التوفر على ندبة ميته، والإشباع في ذكر فقد خصاله، ثم الكرّ على تسكين جأشه، وحضّه على التعزّي انتقاء لربه، هذه طريقة فحول الشعراء". وهكذا يحاول ابن بسام أن يضع بين أيدي الشعراء منهجا تاما جاهزا في الرثاء، وهو يستنبطه من المراثي التي نظمها قدماء الشعراء.

على الرغم من كلام ابن بسام هذا، فإنّ الذوق الفني ينقض ما قاله فقد "دفعته عصبية الإقليمية إلى التغافل عما تشي به النصوص الشعرية في عصره من تسلل تلك المطالع القديمة إليها، فقد نسج الشعراء على منوالها افتخارا واعتزازا بها، ونزعم بأنّ مجرد ذكر ابن بسام لها هنا تأكيد لمدى تشبث شعراء الأندلس

على اختلاف عصورهم وطبقاتهم بتيار الشعر القديم؛ لشدة أسره وجزالة أسلوبه وجريانه مع الطبع وقرب مأخذه وحسن تأتيه، وما ذهب إليه ابن بسام بأنّ الأذواق قد لفظت كل مطلع في الشعر القديم ليس على إطلاقه، ففي عصره هذا عشرات الشعراء برعوا في منافسة المحدثين ولم يتبرموا بالقديم، بل جعلوه نصب أعينهم، وقد رأينا ذلك عند ابن دراج وابن خفاجة وغيرهم، بل إنّ بعض الشعراء لم يتركوا المطلع التقليدي حتى في موشحاتهم على الرغم من أنها فنّ جديد مبتكر خارج عن الشعر في بنيته" ، فهذا ابن زيدون الشاعر الحضري يقول في موشحة له يتذكر فيها قرطبة:

سقى الغيثُ أطلالَ الأحبةِ بالحمى وحاكَ عليها ثوبَ وشيٍّ مُمنَمّا

وقد علق على ذلك أحد الدارسين قائلا: "إنّ مطالعا كهذا لا يحتاج إلى تأمل كبير لإثبات صلته بشعر القدماء، فهو ينبئ عن نفسه، ويعرب عن تجربة شاعر حاذق أدرك أن عراقته الفنيّة في تمسكه بتقاليد الشعر العربي مهما تباعد الزمان والمكان."

من خلال ما سبق نستطيع تحديد موقف ابن بسام من قضية القديم والجديد، إذ لم يستقر على ذلك الموقف الرائع الذي اتخذه من الأدب القديم، والذي يعكس في حقيقته جوهر الصراع بين التجديد والتقليد. فقد استطاع "أن يرسم لنفسه، على الصعيد النظري، موقفا رائعا من الانتصار للجديد، وإزالة العلاقة المتزمّنة عن القديم، ولكنه تقهقر عند التطبيق، وبدأت محافظته أرسخ من أن تقتلع من جذورها تلك الثورة على ما بلغته من القوة، والجرأة، في الميدان النظري". وهذه حقيقة يقرها الكثير من الدارسين والمنقبين في الذخيرة، فهذا إحسان عباس، مثلا، يرى: "أنّه بعد أن عاب التقليد في أهل بلده، عاد في أثناء كتابه يعرض أشعارهم وأساليبهم ومعانيهم في نثرهم على أشعار المشاركة وكتاباتهم، ليدل على الأخذ والمحاكاة فكان يثبت لهم مظاهر التقليد فيما يحاول أن يبرز ما لديهم من طارف جديد."

## 2.1- ابن بسام وموقفه من المقدمة الطلّية:

غير خاف أنّ المقدمة في القصيدة العربية عموما قد شكلت مظهرا بارزا من مظاهرها ومصدرا خصباً لما وضع حولها من دراسات وأبحاث، تحاول النظر في هذه المقدمة باعتبارها مقطعاً رئيسياً من مقاطع القصيدة، ومدخلا أساسيا لا يَجْمَلُ بالشاعر تجاوزه أو تناسيه، ومن هذا المنظور كانت هذه المقدمة محور اهتمامات النقاد العرب، سواء منهم القدامى أو المحدثون، كما كانت مركز اهتمام الشعراء؛ إذ التزم أغلبهم "بالبناء الفني الموروث عن القصيدة العربية القديمة، الذي يبدأ بالوقوف على الأطلال فالنسيب والتشبيب فوصف الصيد ثم المدح أخيرا، وقد أضافوا على هذا البناء استهلال القصائد باستسقاء الديار، إذ عدّ مثل هذا الاستهلال عادة مطردة لدى الشعراء"، ونشير هنا إلى صنيع ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) حين دعا إلى تكريس ذلك التقليد ليكون مبدأ فنيا يجب الالتزام به، إذ يقول: "وليس لمتأخر الشعراء أن

يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيّد البنيان، لأنّ المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأنّ المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يردّ على المياه العذاب الجواري، لأنّ المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأنّ المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعرارة". ومن نص ابن قتيبة نعرف أنّ "الديار وسيلة لاستحضار من كانوا فيها، ونعرف أنّ الشاعر يخاتل ممدوحه للوصول إلى عطائه، ونعرف أنه يزود الشعراء عن عالمهم اللذين يعيشون فيه إلى العالم القديم، وهو لم يلاحظ أنّ الشاعر المادح لم يبتكر هذا النوع من التقديم وإنما سار في درب معبد". فهو هنا إنّما يضع حدود القصيد الجاهلي عرفاً فنيا لا ينبغي لأحد أن يجاوزه، وإذا نظرنا كيف جعل التلطف في الاستجداء والتكسب غاية هذا العرف، أدركنا علة ذلك الازدراء الذي عبر عنه طائفة من النقاد إزاء الشعر .

أمّا ابن رشيق فقد تنبه إلى ظاهرة التقديم، وبخاصة حين تكلم عن المطالع فنجدّه يقنن لهذه الظاهرة بقوله: "إن كان من يهجم على ما يريده مكافحة ويتناوله مصافحة وهو يسمي هذا النوع من الهجوم: الوثب، والبتز، والقطع، والكسع والاقتضاب، ويسمي القصيدة التي تجيء على تلك الحال بترء كالخطبة البترء والقطعاء". ويتفق معه شفيق جبيري في القول بأنّ: "المطلع مفتاح القصيدة إذا وقع في يد الشاعر هجم على موضوعه، وإن مجيئه مهم جداً له وقد يفتح عليه سائر القصيدة."

على أنّ هذه المقدمة فقدت قداستها لدى بعض نقّاد الأندلس؛ إذ مال أغلبهم إلى التّخفف منها واستبدالها بالمقدمة الروضية، يستدل على ذلك من دفاع ابن خفاجة عن منهجه الشعري في هذا المجال بقوله: "لعل ما ينعاه وينكره إنما هو ما نحن نختاره ونؤثره من ذكر التلدد والتلبد في الديار التي نحياها ونندبها تارة ونبكيها". وكذلك سجل ابن بسّام في (ذخيرته) رأي ابن شهيد الذي كان "يوصي بعدم تصدير القصائد بالمقدمات الغزلية أو إنهاؤها بوصف الجود والكرم على الرغم أنّنا نجد ما أوصاه مستعملاً في قصائده"، وقد ناقش هذا الرأي ضرورة "تدبير المقاطع والمطالع عندما انتقد رأي الجاحظ القائل بأنّ تعليم البيان أغلى من النحو والغريب لقيّمته العالية وذلك لأنه لم يكشف في كتابه (البيان والتبيين) عن وجه تعليم البيان ولا صور كيفية التدريج، لأنّه لو وضّح ذلك لبين كيف يكون وضع الكلام وتزيين البيان، والتوصل إلى حسن الابتداء، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء، وتدبير المقاطع والمطالع، لأنّها معادن الصنعة ومواضع مفاتيح الطريقة."

ويحدّد ابن بسّام موقفه من المقدمة الطللية، حين يعلّل عدوله عن الخوض في أهل العصور السابقة لعصره بقوله: "وقد مجّت الأسماع: (يا دار مية بالعلياء فالسند)، وملّت الطباع: (الخولة أطلال بئرقة

ثهمد) ومحت: (قفا نبك) في يد المتعلمين، ورجعت على ابن حُجر بلائمة المتكلمين، فأما (أمن أم أوفى) فعلى آثار من ذهب العفا. أما أن أن يصمّ صداها، ويُسام مداها؟. وعلى الرغم من مبالغات ابن بسام وصدحه بعبارات توحى بملل الناس من مطالع القصائد القديمة وأن كل مرّد ثقيل، وكل متكرّر مملول نجد أنه لا يثور على الأطلال من حيث هي أطلال وعناصر بدوية رثّة، كما يفهم النقاد، وإنّما كان يثور على موضوعات الشعر القديمة من مديح وهجاء وما يندمج في ذلك من أطلال وغير أطلال.

ويبقى موقف ابن بسام من التجديد الفني في بنية القصيدة الأندلسية خليقا بالإعجاب والإكبار. وأكبر دليل على ذلك تشبّعه بآراء المدرسة القديمة، فقد عزف عن قبول الموشحة كبناء جديد، لا لشيء إلا لأن أكثرها على غير أوزان الخليل المعروفة. يقول ابن بسام: "وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان، إذ أكثرها على غير أعاريض العرب". وهو ما يؤكد على أنّ "التجديد الفني ينبغي أن لا يتعارض مع النمط العالي من الأصالة المطردة في شعر العرب من حيث الشكل، فقبول الموشحة بلغتها العامية معناه انحراف بلغة الأدب، وهبوط بمستوى بلاغته."

### 3.1- ابن بسام وعمود الشعر العربي :

تعدّ قضية عمود الشعر إحدى القضايا النقدية التي كانت تدور في نطاق قضية التقليد والتجديد حيث كان ينظر إلى الشاعر بقدر التزامه بهذا العمود أو الخروج عنه، ومما ورد في الكتب النقدية عند الحديث عن عمود الشعر يبيّن أنّ أصحاب تلك الكتب يقصدون به "تقاليد الشعر الموروثة، والمبادئ التي سبق إليها الأولون واحتذاها من جاء بعدهم"، ولم تتحدد قواعد عمود الشعر وعناصره بدقة إلا على يد المرزوقي حين جمع آراء السابقين وهي: "شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر."

والملاحظ أنّ ابن بسام يتفق في رؤيته لعمود الشعر مع رؤية المرزوقي في عدة نقاط ولعلّ أهمها: اهتمامه بالاستعارات البعيدة التي أشار إليها في غير موضع من (ذخيرته)، وتعقبها ناقداً، وجعلها مذهباً وسم به بعض الشعراء، فقال في ترجمته لأبي محمد بن الطلاء المهدي: "أفرط في باب الاستعارة وأبعد وخرج بها إلى حيّز الإضحاك بما برد"، وفي ذلك ما فيه إشارة واضحة إلى إعجابه "بالاستعارة الموفقة والعبارة الرشيقة، واستعمال التشبيه دون أداة"، وعدّ ذلك معياراً للشاعرية، كما أورد عدداً من الاستعارات التي عابها لبعدها، ولأنّها لم تجر على العرف، فمن ذلك على سبيل المثال قول ابن شماخ:

فلولا علاه عشتُ دهرِي كُلَّهُ      وكيُسُ كلامي لا أحلُّ له عَقْدًا

فعلّق على ذلك قائلا: "واستعاراته كيسًا للكلام، من مضحكات الأنام"، ولكن ابن بسّام لا يكتفي بهذا القدر من التعليق، بل ينطلق من حكمه على هذه الاستعارة، التي لم تعجبه، ليردّ جملة من نماذج الاستعارة المستقبحة، ومن أمثلة ذلك قول حسان المصيصي:

إِذَا كَانَتْ جِفَانُكَ مِنْ لُجَيْنٍ فَلَا شَكَّ الْغِنَى فِيهَا تُرِيدُ

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ موقف ابن بسّام من الاستعارات البعيدة يشبه إلى حد كبير موقف الآمدي من بعض استعارات أبي تمام، التي عدّها في "غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبُعد عن الصواب"، وعلى النهج ذاته اعتبر إحسان عباس "ثورة ابن بسّام على الاستعارات البعيدة دليلا على محافظته والتزامه بالذوق العربي العام، الذي يمثلّه عمود الشعر" كما يحكم على الأبيات بأنها من غريب المعاني لما فيها من صور غير مألوفة لا تتفق مع جمال السبك، ورشاقة الرصف اللذين ينشدهما، ولا تتفق أيضا مع ما يتطلبه عمود الشعر من سهولة وبساطة، وبُعد عن التكلف والتعقيد والغموض حيث يقول في هذا الشأن: "إنّ تجاوز المعنى حدود المقبول من مبالغة وغلو ينتقص من صحة المعنى وشرفه، وقد أبان في ذخيرته عن كرهه للمبالغة الممقوتة، فقد أورد قصيدة للشاعر عبد العزيز بن خيرة القرطبي ولكنه امتنع عن إيراد بعض أبياته لما اندرج له فيها من الغلو"، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده من أبيات للسُّميسر تبع فيها المعري في بعض معانيه التي أقامها على الشك، وسلك فيها سبيل الفلسفة والتي يقول فيها:

يَا لَيْتَنَّا لَمْ نَكُ مِنْ آدَمٍ أَوْ رَطْنَا فِي شَبِّهِ الْأَسْرِ

إِنْ كَانَ قَدْ أُخْرِجَهُ ذَنْبُهُ فَمَا لَنَا نُشْرِكُ فِي الْأَمْرِ؟

وعلق على كلامه فقال: "وهذا معنى فلسفي قلما عرّج عليه عربي، وإنما فزع إليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب، وعدموا رونق كلام الأعراب."

وابن بسّام في مذهبه الرافض للمعاني الفلسفية متأثر بالآمدي في إبعاده الشعر الذي يغترف من دقيق معاني الفلسفة، وإن اتفق في تضاعيف هذا الشعر من صحة الوصف وسلامة النظر ولطافة المعنى. ويعلل لذلك الآمدي بقوله: "فإن شئت دعوناك حكيما، وأسميناك فيلسوفا، ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك بليغا لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم، فإن سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء."

وكان ابن بسّام كثيرا ما يصرح بميله إلى عمود الشعر العربي وطريقة الفحول، ومن ذلك حديثه عن شعراء غرب الأندلس حين قال: "وطريقتهم في الشعر هي الطريقة المثلى التي هي طريقة البحثري في السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة"، وطريقة البحثري هذه هي "لبُّ التيار القديم، وهو الطبع الذي درج

عليه الشعراء الجاهليون، حيث كانوا يجرون مع طبائعهم فيسجلون كل ما تمليه عليهم شياطينهم أو تجود به قرائحهم دون مراجعة طويلة، يجعلون الفكرة رائدهم وإصابتها هدفهم، صارفين النظر عن الزخارف اللفظية والمعاني الغريبة"، وفي سياق انتصاره للبحثي، شدّد على ضرورة تعاطي صنعة الشعر عن طبع واقتدار؛ إذ تعتمد نظرته إلى الشعر المطبوع على ذوقه الخاص الذي يحاكي به ذوق نقاد الشعر العربي القدامى حين مالوا إلى تفضيل الشاعر المطبوع على المصنوع، فالشاعر الذي ينظم قصيدته عن طبع دونما تثقيف هو شاعر مفضل عند ابن بسام، ويمثل أهم دلالة من دلالات البديهة والارتجال، ولا غرابة في ذلك فابن بسام معجب أيما إعجاب بالأندلس والأندلسيين اللذين امتازوا في أنهم يمثلون الطبع الشعري.

وليس هذا فحسب بل وجدناه يثير قضايا فنية مختلفة على جانب كبير من الأهمية والتمرس، وذلك في قوله: "إنّ السرقة لا يفضحها إلا القول على البديهة عند ضيق المجال فليس هناك تروّ ولا استعداد حينذاك يعرف السارق بسكوته ويظهر المحسن وبرز بتدفق طبعه وجزيرته". ووضح ممّا سبق أنّ البديهة مقياس "تقاس به مقدرة الشاعر أولاً، وما يتهم به من السرقة للشعر ثانياً، لأنّه لم يُعدّ الأبيات في ذهنه من قبل فيفاجأ بطلب النظم فيجيب ويبدع". وهكذا نلمح في كلام ابن بسام ما يشبه التكرار لمبدأ كان قد دافع عنه بتلك الحرارة وتلك الحماسة من خلال تفضيله الطريقة العربية في نظم الشعر تلك الطريقة التي تتميز بنوع من البساطة واليسر، والالتزام بعمود الشعر كما جاء في القصيدة القديمة.

**5-الخاتمة:** على الرغم من أنّ قضية القديم والجديد لم تكن القضية المحورية التي وُضعت من أجلها الذخيرة إلا أنّها ساعدت بشكل أو بآخر في بلورة الغرض الأساس للكتاب، وقد اتسم ابن بسام في نظرته لهذه القضية وفي تعامله مع الشعراء بكثير من الاتزان والاعتدال فهو مراعى لضرورة الحكم على الأدبي بقيمته الذاتية، وخصائصه الموضوعية، لا بأهمية قائله أو مكانه أو زمانه، ولكننا، في الوقت نفسه، نجد في نقده التطبيقي، وموازناته الشعرية، وفي موقفه من فني الموشح والزجل ما يشير إلى أنّه راعى الأركان والقواعد التي قام عليها عمود الشعر العربي، وأنّه اعتدّ بها في تقديره للشعر ونقده، دون أن يقف جامداً في نطاق قواعد عمود الشعر العربي. فهو مع جيّد المحدثين ما دام أصيلاً ومتسامياً في جوهره، وهو ضدّ الجديد إذا كان فيه الخروج على طريقة العرب التي تكتسب في معياره صفة خلقية ونزعة دينية.

وقد تبين أنّ النظرات النقدية التي أوردها ابن بسام في ذخيرته لم تتعد في خطوطها العامة عن النقد المشرقي؛ لأنّ الحضارة الأندلسية لم تتعد عن الحضارة العربية الإسلامية عموماً باعتبارها جزءاً منها والفصل بين الحضارتين شيء لا ينطبق على الواقع فأدباء الأندلس والمغرب كانوا يتبعون الحركة الأدبية والنقدية في المشرق ويسيروا عليها أو يطورونها، فكان تراثهم الأدبي لذلك متصلاً اتصالاً وثيقاً بالمشرق.

## قائمة المراجع:

- 1\_ مصطفى هذارة. مشكلة السرقات في النقد العربي (دراسة تحليلية) المكتب الإسلامي. بيروت، ط1975، 2.
- 2\_ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مجلد : 9، جزء : 18.
- 3\_ أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، الموشح. تح: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر القاهرة 1965.
- 4\_ ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبد الستار احمد فراج، دار المعارف بمصر، ط4، 1956 .
- 5\_ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أخبار أبي تمام، تح: خليل محمد عساكر وآخرون، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
- 6\_ هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار الرشيد، العراق، 1981.
- 7\_ ابن بسّام الشنتريني. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978 .
- 8\_ علي بن محمد، ابن بسّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 9\_ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، د، ط2003 .
- 10\_ الكلاعي عبد الغفور : أحكام صناعة الكلام، تحقيق : رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1966.
- 11\_ إبراهيم بن موسى السهلي، التيار القديم في الشعر العربي في الأندلس، مجلة الجامعة الإسلامية العدد 161 .
- 12\_ عبده بدوي، الطلل والتشبيب في مقدمة القصيدة، مجلة فصول، مج1، العدد 4، يوليو 1981.
- 13\_ هدى شوكة بهنام، النقد في كتاب نفح الطيب، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1984.
- 14\_ شريف راغب علاونة، النقد الأدبي في الأندلس. (عصر المرابطين والموحدين)، وزارة الثقافة، الأردن، ط1. 2005.
- 15\_ مصطفى عليان عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس (في القرن الخامس الهجري)، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1984 .
- 16\_ عبد الله محمد العضيبي، النقد عند الشعراء (في القرن الرابع الهجري)، منشورات ضفاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2013 .
- 17\_ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة بيروت، ط2 1971.
- 18\_ أبو الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت 1981.
- 19\_ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة ط7. 1985.
- 20\_ يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس بيروت ط2 1982.

21\_ الأمدي أبو القاسم حسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: السيد احمد صقر، دار المعارف القاهرة، 1965.

### الهوامش:

- مصطفى هذارة، مشكلة السرقات في النقد العربي (دراسة تحليلية) المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1975. ص34.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مجلد: 9، جزء: 18، ص372.
- أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني. الموشح. تح: علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر، القاهرة، 1965 ص348.
- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ط4، 1956، ص18.
- أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أخبار أبي تمام، تح: خليل محمد عساكر وآخرون، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت ص16 و17.
- هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار الرشيد، العراق، 1981. ص225.
- ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978 ق1م1. ص13 .
- علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص327
- الذخيرة: ق1م1. ص13.
- الكلاعي عبد الغفور: أحكام صناعة الكلام، تحقيق: رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1966، ص299.
- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، دط، 2003 ص10.
- الذخيرة: ق2م2. ص33.
- المصدر نفسه: ق1م1. ص149 .
- المصدر نفسه. ق1م1. ص149.
- شريف علاونة، النقد الأدبي في الأندلس. (عصر المرابطين والموحدين)، ديوان المطبوعات والنشر، الأردن، ط1 2005 ص101.
- مصطفى عليان عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس. (في القرن الخامس الهجري)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 1984. ص415.
- الذخيرة: ق2م1. ص42.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ص414.
- الذخيرة: ق4م2. ص584.
- ابن بسام وكتاب الذخيرة: ص329.
- الذخيرة: ق1م2. ص808.

- المصدر نفسه، ص 816.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ص 408.
- الذخيرة: ق 1م. 2. ص 318.
- إبراهيم بن موسى السهلي، التيار القديم في الشعر العربي في الأندلس، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 161، ص 511.
- المصدر نفسه، ص 511.
- المصدر نفسه، ص 511.
- ابن بسّام وكتاب الذخيرة: ص 333.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي. (عصر الطوائف والمرابطين. دار الثقافة)، ط 7 1985. ص 99.
- هدى شوكة بهنام، النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب، دار الرائد العربي، بيروت، ط 2. 1984 ص 207
- الشعر والشعراء: ج 1. ص 77.
- عبده بدوي، الطلل والتشبيب في مقدمة القصيدة، مجلة فصول، مج 1، العدد 4، يوليو 1981، ص 25.
- أبو الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5، دار الجيل بيروت، 1981  
231/1
- يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية في النقد العربي القديم. (في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس، بيروت ط 2 1982  
ص 203.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ص 423.
- الذخيرة: ق 1م. 1. ص 273.
- النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب: ص 115.
- الذخيرة: ق 1م. 1. ص 13.
- المصدر نفسه: ق 1م. 1. ص 469.
- تيارات النقد في الأندلس: ص 428.
- النقد الأدبي في الأندلس: ص 107.
- عبد الله محمد العضيبي، النقد عند الشعراء. (في القرن الرابع الهجري)، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، ط 1 2013.  
ص 289.
- الذخيرة: ق 4م. 1. ص 360.
- النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب: ص 190.
- الذخيرة: ق 1م. 2. ص 841.
- المصدر نفسه: ق 1. م. 2. ص 842.

- الآمدي أبو القاسم حسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة، 1965 ص250.
- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة، بيروت، ط2 1971 ص506.
- النقد الأدبي في الأندلس: ص109.
- الذخيرة: ق1، م2، ص378.
- ابن بسام وكتاب الذخيرة: ص367، 368.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: ص401.
- الذخيرة: ق2، م1، ص12.
- التيار القديم في الشعر العربي في الأندلس: ص487.
- النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب: ص153.
- المصدر نفسه، ص153.